مجلة الآداب واللغات - العدد 11 - ت ديسمبر 2006

تأثر البلاغيين بالدراسات النحوية.

د/ عبد الجليل مصطفاوي
قسم اللغة العربية وآدابها -جامعة تلمسان

نشأت البلاغة، كغيرها من علوم العربية لخدمة القرآن الكريم وإتقان اللغة وتعليمها، والوقوف على أساليبها وأشكالها المختلفة في التعبير، إلا أن اكتمالها علماً له مجالاته وحدوده وقواعده جاء متأخراً من حيث الزمن عن الدراسات النحوية لأسباب تاريخية وموضوعية.

ومن الطبيعي، كما نعتقد، أن النظر في الأساليب والمعاني التي تفيدها الأشكال التعبيرية المختلفة، والتراكيب المحتملة لا يتأتى قبل أن تكتسب اللغة، أي لغة، قوانينها وأنماطها التشكيلية.

ومن ههنا فإن الاهتمام بالنواحي الجمالية والأسلوبية، والألوان التعبيرية جاء تابعاً لتلك الدراسات التي اهتمت بإرساء قواعد اللغة، وضبط قوانينها. وعليه فإن البلاغيين قد أفادوا من عمل النحاة وصنيعهم؛ ولا عجب في ذلك، فإن أغلب رجال البلاغة كانوا نحاة قبل أن يتوجهوا وجهة فنية في أبحاثهم ودراساتهم.

أولا: البلاغيون والنحو العربي:

كان عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ) إماماً في النحو، وله مصنفات كثيرة فيه[1]. وقد بنى أساس نظريته في النظم على معطيات النحو وأحكامه؛ إذ يقول:" اعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخل بشيء منها"[2].

ولم يكن الزمخشري(ت538هـ) بأقل تأثراً بمسائل النحو وأصوله من عبد القاهر؛ فقد ألف هو الآخر مصنفات في النحو، منها (المفصل) الذي طارت شهرته في الأمصار؛ فتصدى له كثيرون بالشرح والتحليل، من أبرزهم ابن يعيش. وقد عالج في تفسيره (الكشاف) عديداً من المسائل النحوية، وتفرَّد في بعض منها بآراء جديدة[3]. والحق أننا بخصوص الزمخشري لا نستطيع أن نزعم أنه بلاغي محض أو نحوي محض؛ لأن دراساته تراوحت بين النحو والبلاغة على حد سواء[4].

أما ضياء الدين ابن الأثير(ت638هـ) فإنه يرى أن مفاتيح الدرس البلاغي وآلاته هي النحو والتصريف وغيرها[5]. وقد ظهرت إفادته من جهود النحاة في الفصل الذي خصصه لدراسة حروف المعاني[6].

ولم ينج أبو يعقوب السكاكي(ت626هـ) ومن شرحوا كتابه من تأثير الدراسات النحوية على آرائهم وأبحاثهم؛ فقد تفنن السكاكي في علوم شتى منها النحو، وخصص قسمين كبيرين من كتابه(مفتاح العلوم)للصرف والنحو.

وقد ظهر تأثر المتأخرين من البلاغيين بالدرس النحوي، من خلال محاولاتهم تقعيد أبواب البلاغة وتقسيمها وتبويبها، وضبط أحكامها، والاقتناع بالشاهد الواحد، والتركيز على صحة القاعدة. يقول أحمد مطلوب:" وقد كان بحث القزويني، ومن لَفَّ لفَّه، وسار على منهجه أقرب إلى الدراسات النحوية، ومن هنا جاءت جافة لا رَواء فيها ولا رونق، ولا تفيد في تربية الذوق وصقله، وإن كانت فيها بعض الومضات التي يمكن الاستفادة منها في كتابة البلاغة الجديدة. ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن القزويني ابتعد عن مجال الدراسات النحوية المتأخرة من اهتمام بالعامل والإعراب وغير ذلك، ولكن دراسته هذه لا تجدي نفعاً في البلاغة، ولا تقدم غذاء فيه النماء والتطور؛ لأن تحليقه كان دون تحليق عبد القاهر وابن الأثير، وإن حلق في أجواء غير أجواء النحاة المتأخرين"[7].

وقد ترددت مصطلحات نحوية كثيرة في كتب البلاغيين كالاستئناف والإعراب، والتشريك في الحكم، والتوكيد اللفظي والمعنوي، وبدل الكل والاشتمال، والنصب والرفع، والحمل على المعنى،وغيرها.

ثانيا: المعاني النحوية في تحليلات البلاغيين:

من الأمور البارزة في دراسات البلاغيين– ولا سيما أقطاب المدرسة الأدبية الفنية بزعامة الإمام عبد القاهر الجرجاني – أنهم حاولوا التخلص في أبحاثهم من إسار الأحكام الوظيفية والتركيز على المعاني الإضافية التي تستفاد من الأحكام النحوية، والابتعاد عن البحث في الوظائف التي تمس الأدوات و الجمل و غيرها؛ فاهتمامهم بهذه الأحكام لا يكون إلاّ بقدر ما توحيه من معان وظلال[8].

وما النظم عند عبد القاهر إلاّ توخي"معاني النحو وأحكامه بين الكلم. ولا يقصد بالنحو معناه الضيّق الذّي فهمه المتأخرون، وإنّما يريد المعاني الإضافية االتي يصوّرها النّحو. وبذلك رسم

في دلائل الإعجاز طريقا جديدا للبحث النحوي تجاوز أواخر الكلمة وعلامات الإعراب، وبيَّن أن للكلام نظما وأن رعاية هذا النظم واتّباع قوانينه هي السّبيل إلى الإبانة والإفهام"[9].

وقد أكّد بعض الدراسيين المحدثين أنّ الطّريق الذّي فتحه الإمام عبد القاهر في الدراسات النّحوية يتماشى مع أحدث ما وصل إليه علم اللسان الحديث في أيّامنا من آراء. فما قرّره علماء اليوم من أنّ اللّغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات (systeme de rapports) هو الأساس الذّي بنى عليه عبد القاهر كل تفكيره اللغوي منذ أكثر من تسعة قرون[10]. ثم إنه استطاع أن يجمع في نظرية واحدة بين نظريتين: نظرية القواعد التحويلية التوليدية ونظرية البنيوية الوظيفية؛ وهو الأمر الذي تسعى إليه أحدث الدراسات اللغوية في وقتنا[11].

والحق أننا قد وجدنا- في حدود اطلاعنا على مصادر البلاغة العربية- بعض البلاغيين، وفي مقدمتهم الشيخ عبد القاهر الجرجاني، قد قفزوا بالقواعد النحوية قفزة نوعية خلصت النحو العربي من إسار الأحكام الوظيفية الجافة، وخرجت به إلى فضاءات أكثر رحابة تمثلت في إجراءات تطبيقية تحليلية للنظم القرآني وكلام العرب؛ فقد تحوّل النحو إلى دراسة أسلوبية تعبيرية تعنى بالمعنى أولاً وأخيراً[12].

وسنورد نماذج ههنا من تحليلات البلاغيين لنبيّن من خلالها كيف فهموا أحكام النحو وقوانينه، وكيف أفادوا من ذلك في إبراز المعاني والظلال التي توحي بها تلك القواعد والأنماط الثابتة التي وضعها النحاة الأوائل. ففي باب التقديم والتأخير نجد عبد القاهر الجرجاني يأخذ على النحاة المتقدمين كونهم لم يعنوا بهذا الأسلوب الذي يحمل كثيراً من أسرار البلاغة ولطائفها، وعجائب الإعجاز القرآني ودقائقه.

يقول في هذا الشأن:" اعلم أنّا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام. قال صاحب الكتاب[*] وهو يذكر الفاعل والمفعول، كأنهم يقدمون الذي بيانُه أهمّ لهم وهم بشأنه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمّانهم ويعنيانهم، ولم يذكر في ذلك مثالاً...ولتخيُّلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم وهوّنوا الخطب فيه حتى إنك لترى أكثرهم يرى تتبّعه والنظر فيه ضرباً من التكلف. ولم تر ظناً أزرى على صاحبه من هذا وشبهه"[13].

فالتقديم والتأخير في القرآن الكريم وكلام العرب، كما يرى عبد القاهر، ليس مجرّد عناية واهتمام، بل هو شيء أبعد من ذلك؛ إذ به تتباين العبارات وتتفاوت الأساليب، فيعلو هذا ويسفل

ذلك، وبه يرقى الكلام إلى سحر البيان أو ينحطّ إلى الركاكة والابتذال. وهو،مثلما يؤكّد، باب لا يدرك فضيلته إلا من تدبّر اللغة وأنعم النظر في ظلال معانيها وألوانها وتشكيلاتها التي تتباين بحسب مقتضيات التأليف والأحوال.

ولكي يوضّح هذه الفكرة ويبيّن قيمتها الجمالية والمعنوية يورد جملة من النماذج القرآنية والشعرية،ثمّ يحللها تحليلاً فنياً يوحي بعمق تأمّله وحسن تدبّره لأساليب العربية. ففي قوله تعالى:(أأنت فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيمُ)[14] يحاول أن يشرح سبب تقديم الضمير(أنت) على الفعل فيقول:" ...لا شبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يقرَّ لهم بأنّ كسر الأصنام قد كان، ولكن أن يقرّ بأنه منه كان. وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم:أأنت فعلت، وقال هو عليه السلام في الجواب: بل فعله كبيرهم هذا؛ولو كان التقدير بالفعل لكان الجواب: فعلت أو لم أفعل"[15].

فتقديم الضمير(أنت) ههنا ورد لنكتة بلاغية وغاية فنية مقصودة؛ لأن الغرض من الكلام هو السؤال عن الفاعل وليس الفعل؛ إذ الفعل معلوم من قوم إبراهيم عليه السلام، فهم قد عاينوا أصنامهم ووقفوا عليها فوجدوها محطمة مهشّمة.

ولنأخذ نموذجاً آخر، من غير باب التقديم والتأخير، وهو هذه الأبيات للشاعر الرّقيق البحتري الذي يقول مادحاً[16]:

بَلوْنا ضرائبَ مَنْ قد ترى ... فما إنْ رأينا لفتحٍ ضريبَا
هو المرءُ أَبْدَتْ له الحادثا ... تُ عزماً وشيكاً ورأياً صَليبَا
تنقَّل في خلُقَيْ سؤدد ... سماحاً مُرجَّى وبأساً مَهيبَا
فكالسيف إنْ جئتَه صارخاً ... وكالبحر إنْ جئتَه مُستثيبَا

فعبد القاهر الجرجاني يتكئ، في تحليل هذه الأبيات، على معطيات علم النحو التي تغدو عند مفاتيح يلامس بها لغة الشاعر فيقول:" فإذا رأيتها قد راقتك، وكثرت عندك، ووجدْتَ لها اهتزازاً في نفسك فعد فانظر في السبب واستقص في النظر،فإنك تعلم ضرورة أن ليس إلا أنه قدم وأخر وعرف ونكر، حذف وأضمر، وأعاد وكرّر، وتوخىّ على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النّحو، فأصاب في ذلك كلّه، ثمّ لطف موضع صوابه وأتى مأتى يوجب الفضيلة.

أفلا ترى أنّ أوّل شيء يروقك منها قوله:هو المرء أبدت له الحادثات، ثمّ قوله: تنقل في خلقي سؤدد بتنكير السؤدد وإضافة الخلقين إليه، ثمّ قوله: فكالسيف وعطفه بالفاء مع حذفه المبتدأ؛ لأنّ المعنى لا محالة: فهو كالسيف، ثمّ تكريره الكاف في(و كالبحر)،ثمّ أنْ قرن إلى كلّ واحد من التشبيهين شرطا جوابه فيه، ثمّ أن أخرج من كل واحد من الشرطين حالا على مثال ما أخرج من الآخر، وذلك قوله:(صارخا) هناك و (مستثيبا)ههنا. لا ترى حسنا تنسبه إلى النظّم ليس سببه ما عددت، أو ما هو في حكم ما عددت، فاعرف ذلك "[17]. فتأمّل كيف تحوّلت القواعد النحوية عند الإمام عبد القاهر الجرجاني إلى شيء يتحرّك، شيء يخفي وراءه أسراراً وظلالاً.

وقد نهج الزمخشري السبيل نفسه الذي رسمه عبد القاهر؛ فقد حفل مصنّفه(الكشّاف) بنماذج لا تحصى حلّل فيها عديداً من الآيات والأشعار. فهو يقف عند دلالة التعبير بصيغة المضارع(تُصبح)، في قوله تعالى(أَلَمْ ترَ أنّ اللهَ أنزل من السماء ماءً فتُصبحُ الأرضُ مخضرّةً)[18]، قائلاً:" فإن قلت:هلاّ قيل:فأصبحَتْ، ولمَ صُرِفَ إلى لفظ المضارع؟ قلتُ: لنكتة فيه، وهي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، كما تقول:أنعم عليَّ فلان فأَروحُ وأغدو شاكراً له، ولو قلتَ:فرُحْتُ وغَدوتُ لم يقع ذلك الموقع"[19].

ويشرح في قوله تعالى(وإذا خلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم، إنّما نحن مستهزئون)[20] ترابط الجمل وتآلفها فيقول:" فإن قلت: أنَّى تعلّق(إنما نحن مستهزئون) بقوله(إنّا معكم)؟ قلتُ:هو تأكيد؛لأنّ قوله(إنّا معكم) معناه الثبات على اليهودية وقوله(إنّما نحن مستهزئون) ردّ للإسلام ودفع له منهم؛ لأنّ المستهزئ بالشيء المستخفّ به منكر له دافع؛ لكونه معتدّاً به، أو استئناف كأنّهم اعترضوا عليهم حين قالوا إنّا معكم، فقالوا: فما بالكم – إن صحّ أنّكم معنا– توافقون أهل الإسلام، فقالوا: إنّما نحن مستهزئون"[21].

وتأمّل أيضاً تحليله العجيب للمكوّنات اللفظية والتركيبية في قوله تعالى(واشتعلَ الرأسُ شيباً)[22]؛ فقد أشار إلى فصاحة العبارة مبيناً ما فيها من تناسق وحسن تركيب،فقال:" شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر، وفشوّه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار، ثم أخرجه مخرج الاستعارة، ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس وأخرج الشيب مميزاً، ولم يضف الرأس اكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا؛ فمن ثم فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة "[23].

وفسر دلالة اقتران الليل بالمفعول له والنهار بالحال في قوله تعالى(اللهُ الذي جعل لكم الليلَ لتسكنوا فيه، والنهارَ مبصراً)[24]، وعدم جعلهما حالين أو مفعولاً لهما لمراعاة حق المقابلة والتطابق بينهما قائلاً:" هما متقابلان من حيث المعنى؛ لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدّى الآخر؛ ولأنه لو قيل: لتبصروا فيه، فاتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي، ولو قيل ساكناً- والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة، ألا ترى إلى قولهم: ليل ساج وساكن لا ريح فيه- لم تتميز الحقيقة من المجاز "[25].

أمّا ضياء الدين بن الأثير فقد وجدناه يعتمد هو أيضاً، في شرح النصوص، على التحليل والتطبيق في ضوء معطيات علم النحو كما في قوله تعالى(فحملته فانتبذتْ به مكاناً قصِيّاً، فأجاءَها المخاضُ إلى جِذْعِ النخلةِ، قالتْ يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنتُ نسياً منسيّاً) [26]. فقد رأى أن في الآية دليلاً على أن حملها به ووضعها إياه كانا في زمن قصير؛لأنه " عطف الحمل والانتباذ إلى المكان الذي مضت إليه والمخاض الذي هو الطلق بالفاء، وهي للفور. ولو كانت كغيرها من النساء لعطف بثمَّ التي هي للتراخي والمهلة؛ ألا ترى أنه قد جاء في الأخرى(قُتل الإنسانُ ما أكفره، من أيِّ شيء خلقه فقدَّره ثمَّ السبيلَ يسّرهُ)[27]؛ فلما كان بين تقديره في البطن وإخراجه منه مدة متراخية عطف ذلك بثمّ، وهذا بخلاف قصة مريم عليه السلام فإنها عطفت بالفاء "[28].

ثم يذكر أن المفسرين اختلفوا في مدة حمل مريم عليها السلام؛ فمن قائل إنها حملت كباقي النساء،ومن قائل إن المدة كانت ثلاثة أيام، وقيل أكثر من ذلك، بينما رأى هو أن الآية مزيلة للخلاف؛ لأنها دلّت صراحة على أن " الحمل والوضع كانا متقاربين على الفور من غير مهلة، وربما كان ذلك في يوم واحد أو أقل "[29].

ومن الآيات التي تناولها أيضاً قوله تعالى(قُتل الإنسانُ ما أكفره، من أيِّ شيء خلقه، من نطفةٍ خلقه فقدَّره، ثم السبيلَ يسّره، ثم أماته فأقبره، ثم إذا شاء أنشره)[30]. فقد قال مبيناً دلالة الحروف العاطفة:" ألا ترى أنه لما قال (من نطفةٍ خلقه) كيف قال(فقدَّره) ولم يقل(ثم قدره)؛ لأن التقدير لما كان تابعاً للخلقة وملازماً لها عطفه بالفاء، وذلك بخلاف قوله(ثم السبيل يسَّره)؛ لأن بين خلقه وتقديره في بطن أمه وبين إخراجه منه وتسهيل سبيله مهلة وزماناً؛ فلذلك عطفه بثم. وعلى هذا جاء قوله تعالى(ثم أماته فأقبره، ثم إذا شاء أنشره)؛ لأن بين إخراجه من بطن أمه وبين موته تراخياً

وفسحة، وكذلك بين موته ونشوره عطفهما بثم. ولما لم يكن بين موت الإنسان وإقباره تراخ ولا مهلة عطفه بالفاء "[31].

وتظهر أيضاً إفادته من علم النحو في تحليله قوله تعالى(ولقد خلقنا الإنسانَ من سُلالةٍ من طينٍ، ثم جعلناه نطفةً في قرارٍ مَكينٍ، ثم خلقنا النطفةَ عَلَقةً،فخلقنا العلقةَ مُضغةً، فخلقنا المضغةَ عظاماً، فكسونا العظامَ لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر)[32]. يقول:" ففي الآية المتقدم ذكرها (من نطفةٍ خلَقه فقدَّره)[33] فعطف التقدير على الخلق بالفاء؛ لأنه تابع له، ولم يذكر تفاصيل حال المخلوق. وفي هذه الآية ذكر تفاصيل حاله في تنقّله، فبدأ بالخلق الأول وهو خلق آدم من طين، ولما عطف الخلق الثاني الذي هو خلق النسل عطفه بثم لما بينهما من التراخي، وحيث صار إلى التقدير الذي يتبع بعضه بعضاً من غير تراخ عطفه بالفاء، ولما انتهى إلى جعله ذكراً أو أنثى- وهو آخر الخلق- عطفه بثم "[34].

وهكذا يمكن القول إن مدرسة عبد القاهر كان لها الأثر الطيب في قراءة النصوص، وفي ملامسة إيحاءاتها واستكناه دلالاتها؛ فقد استطاعت بثقافتها النحوية العميقة، وبغوصها في أودية الكلام العربي ومجازاته أن تضع أمام الباحثين المنهج الذي يمكن أن يكون أحد أهم الأدوات والمفاتيح التي نلج بها فضاءات النص العربي وأبعاده معتمدين على معطيات علم النحو وقواعده.

الإحالات

(1) ألف عبد القاهر الجرجاني(المغني في شرح الإيضاح) في نحو ثلاثين مجلداً، و (المقتصد في شرح الإيضاح) في ثلاثة مجلدات، و(العوامل المئة) و(العمدة في التصريف) و(الجمل) ، ينظر فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي:1/612-613.

(2) دلائل الإعجاز: 62، تحقيق د.محمد رضوان الداية ود.فايز الداية ، دار الفداء – دمشق، وينظر الصفحة354 أيضاً.

(3) ينظر في هذا الشأن تحليله قوله تعالى(أئِنَّالمبعوثون،أوَ آباؤُنا الأوَّلون) الصافات:16-17، الكشاف:3/298، دار المعارف – بيروت، وقوله تعالى(أوَ كُلَّما عاهدوا عهداً) البقرة:100، الكشاف:1/85، وقوله تعالى(أوَ لو كان آباؤُهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) البقرة:170، الكشاف:1/107.

(4) ذُكِرَ أنَّ الزمخشري لا يعتد بآرائه في النحو، وأن كتابه(المفصل) مُحتقَر، لا يُشتغل به ولا يُنظر فيه إلا على وجه النقص له والحط عليه. ينظر: الأشباه والنظائر للسيوطي:3/26، تحقيق: إبراهيم محمد عبد الله، مطبوعات مجمع اللغة العربية – دمشق.

(5) ينظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر:2/9، تحقيق محمد محي الدين، مطبعة البابي الحلبي، مصر.

(6) نفسه:2/50-52.

(7) القزويني وشروح التلخيص:296، منشورات مكتبة النهضة – بغداد.

(8) ينظر في هذا الشأن حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي:42/1، وفن القول لأمين الخولي:93،دار الفكر العربي- القاهرة، 1947م، والقزويني وشروح التلخيص:35.

(9) القزويني و شروح التلخيص، د. أحمد مطلوب:228.

(10)ينظر الميزان الجديد، د.محمّد مندور:175، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، الفجالة – القاهرة.

(11) ينظر الموجز في شرح دلائل الإعجاز، د.جعفر دك الباب:123، دار الجليل – بيروت.

(12) ينظر في هذا الشأن كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني؛ فقد حفل بتحليلات عجيبة للتقديم ولتأخير والحذف وأسلوب القصر والجملة الحالية والإخبار بالفعل أو الاسم، وغيرها من الأساليب.

(*) يَقصِد بصاحب الكتاب شيخَ النحاة عمْراً بن عثمان سيبويه المتوفّى في سنة 180هـ.

(13) دلائل الإعجاز: 80-81.

(14) الأنبياء:62.وسياق الآية(قالوا أأنتَ فعلتَ هذا بآلهتنا يا إبراهيمُ قال بل فعلَه كبيرُهم هذا فاسألوهم إن كانوا يَنْطقون).

(15) دلائل الإعجاز: 84.

(16) دلائل الإعجاز:65.

((17) دلائل الإعجاز:65.

(18)الحج:63.

(19)البقرة:14.

(20)البقرة:15.

(21)الكشاف:35/1.

(22) مريم:4.

(23) الكشاف:405/2.

(24) غافر:61.

(25) الكشاف:376/3.

(26) مريم:22-23.

(27) عبس:17-20.

(28) المثل السائر:51/2.

(29) نفسه:51/2.

(30) عبس:17-22.

(31) المثل السائر:50/2-51.

(32) المؤمنون:12-13.

(33) عبس:19.

(34) المثل السائر:52/2.